مراجعة كتاب

استكشاف القرآن: السياق والتأثير

تأليف محمد عبد الحليم [١]

مراجعة: محمد الطاهر الميساوي[٢]

الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا

Exploring the Qur'an: Context and Impact

Muhammad Abdel Haleem

ISBN:9781780763651

Reviewed by
Mohamed El-Tahir El-Mesawi
International Islamic University Malaysia
mmesawi@iium.edu.my

تشهد الدراسات القرآنية في الغرب الأوروبي-الأمريكي تطورًا كبيرًا من الناحيتين الكمية والنوعية، وخاصة في اللغة الإنجليزية. وبقطع النظر عن مقاصد الباحثين في شؤون القرآن وموضوعاته وما يتصل به من قضايا تاريخية وغير تاريخية، ومهما تكن مسلماتهم النظرية وأدواتهم المنهجية في بحوثهم، فإن وجهًا مهمًّا من التطور المشار إليه يتمثل في الاهتمام بالقرآن في ذاته بوصفه نصًّا معطى ينطوي على خطاب خاص يقتضي منطقُ البحث العلمي التعاملَ معه والإصغاءَ إليه والنظر في نصوصه لفهمه وإدراك مضمونه ورسالته.

والأستاذ محمد عبد الحليم -مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا - ذو إسهام مقدر في هذا الصدد من موقعه بوصفه أستاذًا للدراسات العربية والإسلامية بكلية لندن للدراسات الشرقية والأفريقية التابعة لجامعة لندن، ومحررًا لمجلة الدراسات القرآنية التي يعود له الفضل في إنشائها أواخر القرن العشرين، ومديرًا لمركز الدراسات الإسلامية.

https://doi.org/10.29117/jcsis.2019.0221

© 2019 El-Mesawi, licencee ***JCSIS***. This is an open access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International license (CC BY-NC 4.0), which permits any noncommercial use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original author(s) and sources are credited.

(١) Muhammad Abdel Haleem, *Exploring the Qur'an: Context and Impac*t, (London/New York: I.B. Tauris, 2017), 358 pages.

(٢) أستاذ بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

كتاب «استكشاف القرآن»: هموم وقضايا

ليس الكتاب الذي نراجعه هنا من نمط التصنيف الذي تتناول فصوله موضوعًا واحدًا بحيث يجري تحليل قضاياه ومناقشة مسائله على نسق واحد، وإنما هو كتاب يعالج موضوعات وقضايا متنوعة متصلة بالقرآن، منها ما يتعلق بمضمونه وتعاليمه، ومنها ما يختص بمنهج فهمه وكيفية التعامل مع نصوصه وخطابه، ومنها ما يتصل بحضوره وتأثيره. وقد رتب المؤلفُ مادته في محاور ثلاثة: الأول عن تعاليم القرآن واشتمل على فصول أربعة، والثاني عن أسلوبه وطرائق أدائه للمعاني وهو في ستة فصول، والثالث عن حضوره وأثره وفيه فصول ثلاثة، فجاء الكتاب بذلك مشتملاً على ثلاثة عشر فصلاً تحتضنها أولاً وآخرًا مقدمة وخاتمة.

وقد بين المؤلف أن غرض الكتاب هو «التصدي للصورة التي رسمها للقرآن العديدُ من الكتاب الغربيين والمسلمين من القدامى والمحدثين، وخاصة المتطرفين من كل جانب»، وهي صورة ناجمة عن نهج انتقائي ومقاربة متسرعة في التعامل مع الخطاب القرآني، الأمر الذي أوقع أصحابها في تجاهل أجزاء مهمة من النص القرآني بما في ذلك – أحيانًا – إغفال أجزاء من الآية نفسها التي يدرسونها. وكذلك يتجاهل هؤلاء الكتابُ عناصرَ مهمة وضرورية لإدارك المعنى الصحيح للآية أو الآيات محل النظر: من السياق وأسلوب القرآن وخصائصه البلاغية، بل قد يدعون النص القرآني نفسه جانبًا ليبنوا آراءهم وأحكامهم على ما يتلقفونه من بعض التفاسير. (ص١) ولذلك يسعى المؤلفُ إلى الكشف عن جوانب القصور في تلك الصورة التي تتالت على ترسيخها في الغرب أجيالٌ من الكتاب بما غيَّب حقيقةَ القرآن وحال دون فهم تعاليمه فهمًا صحيحًا. (ص٤) وفي هذه الصفحات وقفاتٌ مع بعض المسائل والقضايا التي تناولها المصنف، دون استقصاء ولا تفصيل، اكتفاءً في ذلك ببعض مهماته واستحثاثًا للقارئ النَّهِم على تطلب مكنوناته.

تعاليم القرآن: في تصحيح المفاهيم

جاءت الفصول الثلاثة الأولى في هذا المحور متصلاَ بعضها ببعض اتصالاً وثيقًا، إن لم نقل إنها تتحد في موضوع واحد جرت معالجته من زوايا ثلاث. فالأول عما سماه المؤلف بأسطورة آية السيف، والثاني عن مفهوم الجزية في القرآن، والثالث عن مفهوم الجهاد. وهي -كما لا يخفى -مسائلُ متفرعة عن موضوع أصل، هو علاقةُ المسلمين بغيرهم داخل مجتمعهم وخارجه. أما الفصل الرابع فقد تناول فيه المؤلفُ مفهوم الجنة في القرآن. ففي المسألة الأولى أشار عبد الحليم إلى أن ما يسمى بآية السيف (التي يُقصد بها غالبًا الآية الخامسة من سورة التوبة) من أكثر آي القرآن استشهادًا بها من قبل أصحاب الدعاية ضد الإسلام والمسلمين والمتطرفين (من المسلمين) وغير قليل من الباحثين (الغربيين)، باعتبارها قد وضعت الأساس لعلاقة المسلمين بغيرهم بما هي علاقة حرب دائمة،

وباعتبارها من ثم ناسخةً لآي القرآن التي جاء فيها الكلام عن المسالمة والموادعة والتعايش بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل والأديان. (ص٧-٨) ولوضع الأمور في نصابها في إدراك مدلول هذه الآية ومقصدها، يؤكد المؤلف ضرورةَ استحضار الملابسات التاريخية لنزولها وتحليلها تحليلاً لغويًّا وبلاغيًّا في سياق ما قبلها وما بعدها من سورة التوبة (التي نزلت بعد غزوة تبوك)، ووصلها بما سبقها في سور أخرى من آيات الجهاد والقتال، والأخذَ بصورة خاصة الحالة التي كانت عليها علاقات المسلمين بغيرهم عامة وبمشركي قريش والعرب خاصة. (ص٨-١٧) ويمكن القول إن هذه الأمور قواعد منهجية جرى عليها المؤلف بوضوح في معالجة المسائل الثلاث الأولى السابق ذكرها واستصحبها في سائر فصول الكتاب، الأمر الذي لن نعيد القول فيه تفصيلاً من بعد. وفي ضوء ذلك، خلص إلى عدة نتائج في مقدمتها الأمران الآتيان:

١. إن القرآن لم يستخدم تسميةً واحدة للجماعات المختلفة التي كانت لها علاقاتٌ بالمسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها، بحيث يفيد ذلك حكمًا واحدًا يشملها جميعًا، بل استعمل ألفاظًا مختلفة في الكلام عليها، مثل «المشركين» و«الكفار» و«أهل الكتاب» و«اليهود» و«النصارى». وهذا يفيد مرونةً وتمييزًا في النظرة القرآنية إلى تلك الجماعات، وتنويعًا وتفريقًا في الحكم عليها، الأمر الذي يقتضي نظرًا عميقًا في السياق الخِطابي للآيات التي ذكرتها وربط الآيات بعضها ببعض واستصحاب سياقها التاريخي، ولا سيما العلاقات بين المسلمين وتلك الفئات. وهذا يعني أنه لا مجال للانسياق مع الخيال وتقرير أن لفظ «المشركين» فيما وصف بآية السيف «يشمل اليهود والنصارى وغير المؤمنين»، كما فعل ميخائيل كوك؛ الأمر الذي يعني أن المسلمين مأمورون في هذه الآية بشن حرب مفتوحة على الجميع.

٢. إن الأمر بقتال المشركين في الآية المذكورة - وهي آخر آيات القتال نزولاً - جاء متسقًا مع ما نزل قبلها بشأن الإذن للمسلمين بقتال من قاتلهم أو نكث عهده معهم ناحية، ولم تأت ناسخةً لما سبقها من آيات المهادنة والمسالمة والموادعة والمجادلة، الأمر الذي يعني بناء علاقات سلام وتعايش بين المسلمين وغيرهم، من ناحية أخرى. والقول بالأثر النسخي لهذه الآية ذهب إليه بعضُ العلماء المسلمين قديمًا كهبة الله بن سلامة الذي ادعى أنها نسخت مائة وأربعًا وعشرين آية! وقد تمسك بهذا الرأي في العصر الحديث طائفةٌ من الغربيين، منهم كوك -السابق ذكره -والبابا بنديكتوس السادس عشر، فجعلوا الآية هي الأسَاسَ لكل علاقات المسلمين بغيرهم، بما يعني قيامَ الإسلام على القهر وعدم التسامح في التعامل مع غير المسلمين. والنظر في بنية هذه الآية التي نزلت في العام التاسع للهجرة وفي سياقها النصي المباشر وغير المباشر والتبصر بما اكتنف نزولَها من ظروف تاريخية وملابسات خاصة بعلاقة المسلمين، يُظهر أن المقصودَ بالمشركين فيها هم أولئك الذين نقضوا عهودهم مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانوا في حالة حرب مع المسلمين. (ص١٨-٢٧)

وعلى النهج ذاته سار محمد عبد الحليم في مناقشة مسألة الجزية وما اتصل بها في بعض الكتابات قديمًا وحديثًا (بما في ذلك عند المسلمين) من معاني الإهانة والإذلال التي ينبغي أن تُسلط على دافعي الجزية، أخذًا لذلك من عبارة ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون﴾ في الآية التاسعة والعشرين من سورة التوبة، التي اعتبرها كوك وغيرُه ثانيةَ الأثافي فيما يتعلق بمعاملة غير المسلمين في الإسلام، اعتمادًا على ترجمات حرفية للقرآن. ووجه الصواب في فهم دلالة هذه العبارة خاصة والآية عامة أن التحليل اللغوي الدقيق للآية واعتبار كل عناصر سياقها النصي والسياق التاريخي العام لنزولها وكذلك الطريقة العامة للقرآن وما جاء فيه في هذا الصدد خارج الحدود المباشرة للآية، يفيد غير ذلك تماما (ص**٢٩-٣٠**) كما سنرى بعد قليل. وقد بنى عبد الحليم تحليله اللغوي على سبعة نقاط في الآية يرى أن الغفلة عنها هي سبب الخطإ في إدراك دلالتها ومقصودها، مما لا يتسع المقام للتفصيل فيه. والخلاصة أن الأقاويل التي يحفل بها غير قليل من كتب التفسير والفقه – والتي اعتمدها الكتاب الغربيون – في تصوير الحالة التي ينبغي أن يكون عليها مُعطو الجزية من الذلة والهوان والخضوع، لا تتناسب مع قيم القرآن والسنة وآدابهما في معاملة البشر. وهي -في رأي الكاتب -نتيجة لتأثر العلماء والفقهاء المسلمين بما كان سائدًا في الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية من نظُمٍ جبائية وممارسات عملية في تحصيل الضرائب من جهة، وللنهج التجزيئي في التعامل مع آي القرآن من جهة أخرى. ومن ثم يخلص إلى أن وجه الصواب في دلالة الآية لا يعدو كونها تأكيدًا لضرورة التزام المذكورين فيها من أهل الكتاب بأداء ما عليهم للدولة من ضرائب وإلزامهم بأدائها بالقوة إن أخلوا بهذا الواجب، وهو ما يُعرف في القوانين والنظم السياسية الحديثة بمفهوم «الخضوع الضريبي». (**٣٠-٣٦**)

وبعد استعراض الأقوال في سبب نزول الآية وبيان عدم استنادها إلى معطيات تاريخية ثابتة يمكن التعويل عليها في تحديد الفئة التي أمر المسلمون بقتالها لكي تدفع الجزية، يؤكد عبد الحليم أن التحليل اللغوي والسياقي واستصحاب عادات القرآن الأسلوبية يظهر أنه ما استعمل عبارة «صاغرون» إلا لأنه كان هناك متمردون على سلطان دولة النبي (صلى الله عليه وسلم) رافضون أداءَ ما عليهم باعتبارهم من رعاياها تبعًا لما كان بينه وبينهم من عهود. وأما القول بأن فرض الجزية على أهل الكتاب غايتُه تعويضُ المسلمين عما فاتهم من تجارة مع المشركين لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (التوبة: ٢٨)، فلا يستقيم؛ إذ قد فُرضتِ الزكاةُ على المسلمين في السورة ذاتها (**٦٠ و١٠٣**) ووصفت بأنها تطهير لهم، وبذلك حمَّلهم القرآن عبئًا جديدًا فضلاً عما فاتهم! (ص**٣٧-٤٥**) ويخلص المؤلف إلى أن تشريع الجزية مثالٌ واضح «لقبول تعدد الثقافات في النظام الإسلامي الذي سمح لأصحاب العقائد المختلفة بأن يعيشوا وفقًا لتعاليم أديانهم، ويسهم كل منهم في رفاهية الدولة: المسلمون من خلال الزكاة وأهل الذمة بواسطة الجزية.» (ص**٤٦**)

أما ثالثة الأثافي في تصور العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل والأديان عند سائر الكتاب الغربيين،

فمصطلح الجهاد الذي لم يخل تناولُه عن كثير من الإثارة والتشويش حتى غلبت عليه معان لا صلةَ له بالقرآن أصلا. وتحرير دلالات هذا المصطلح من ذلك التشويش والإثارة يستلزم – في نظر المؤلف -تتبع موارد مشتقات جذر الجهاد وما يتصل به من ألفاظ تقاربه أو تتقاطع معه في الدلالة وتحليلها لغويًا وبلاغيًا وفق رؤية كلية تربط بعضها ببعض بالنظر في الآيات التي جاءت فيها تلك المشتقاتُ والألفاظ من حيث علاقتها بسوابقها ولواحقها في كل سورة والتبصر بسياقيها الخِطابي والتاريخي، مقرونًا ذلك كله باستصحاب سمة التنوع في أسلوب القرآن في التبليغ والبيان والتعليل والحث والإقناع والترغيب والترهيب. ومن شأن هذا النهج – كما يؤكد عبد الحليم – أن يجنبنا الوقوعَ في في اختزال دلالات المصطلح القرآني للجهاد في معنى واحد -هو المعنى العسكري القتالي -وإطلاقِه وتعميمه مجردًا عن حيثياته وشروطه، سعيًا بذلك إلى تأييد رؤيةٍ مسبقة لعلاقة المسلمين بغيرهم من أهل الملل والأديان، كما يفعل الكثير من الكتاب. (ص٤٩-٦٤) وفي ضوء المعالم المنهجية السابقة يقرر الكاتب أنْ لا ريب في أهمية موضوع الجهاد في القرآن بوجهيه العسكري وغير العسكري، فقد شرع الجهاد العسكري أو القتال دفاعًا عن النفس وعن المستضعفين، مؤديًا بذلك وظيفةَ الدفع التي بدونها يسود الفساد في الأرض وتنتهك الحرمات، كما جاء في أكثر من آية. ولكن القرآن وضع للقتال شروطًا وراعى فيه أوضاعًا وأوكل مهمة إدارته وتدبير شؤونه للسلطة الشرعية في النظام الإسلامي كما تشهد بذلك السيرةُ التاريخية لدولة النبي (صلى الله عليه وسلم) ودولة الخلافة في أطوارها المختلفة، ولم يتركه لنزوات الأفراد الشخصية ودوافعهم الذاتية، وهذا هو الأمر الذي يغفله المتطرفون من المسلمين والمتحاملون من غيرهم في كلامهم عن الجهاد، متنكبين بذلك نهج السواء والعدل في فهم تعاليم القرآن. (ص٦٤-٦٨).

حضور القرآن وتأثيره

نُقدم هنا الكلامَ على محتوى المحور الثالث للكتاب توسمًا لصلة بينه وبين المحور الأول تخص كيفيات حضور القرآن وتأثيره في حياة الناس مباشرةً عبر لغته وعلى نحو غير مباشر من خلال الترجمة. وقد خص المؤلف الفصلَ الأول من هذا المحور لحضور عربية القرآن وأثرها في العالم الإسلامي بين العرب وغير العرب من المسلمين، نظرًا في عربية القرآن من زوايا ثلاث: من حيث كونها لغةَ الكلام الإلهي، ومن ناحية خصائصها اللغوية والأسلوبية، ومن جهة تأثيرها في لغات الشعوب المسلمة من غير العرب وآدابها. تحضر العربية من خلال القرآن أو يحضر القرآن بعربيته في حياة كل مسلم عربيًا كان أو غير عربي، ذكرًا أو أنثى، صغيرًا أو كبيرًا، عالماً أو غير عالم، فالقرآن كلام الله وخطابه للبشر، يتلقاه المؤمن بوصفه كذلك، ويحرص على تلاوته ويجتهد في حفظه ولو بقدر أدنى لا يجاوز الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، شرطًا ضروريًا لأداء صلواته. وإذ كان كلام الله مقدسًا عند كل مسلم، فقد سرت

قدسيته إلى العربية ذاتها فصار المسلمون ينظرون إليها بعين التبجيل والتقديس ويحرصون على تعلمها حرصهم على تعلم القرآن. وتلك ظاهرةٌ تاريخية وثقافية فريدةٌ عرفها الإسلام منذ سطوع فجره وعبر انديا حه المستمر على وجه البسيطة وانفتاح قلوب ملايين البشر المستمر اعتناقًا لتعاليمه وتلقيًا لكتابه، في اختراقٍ لا مثيلَ له لحجب التاريخ وعراقيل الجغرافيا وحواجز الألسنة وعوائق الثقافة قبل حصول ما وُصف بثورة الاتصال والتواصل. وذلك هو السر في صيرورة العربية في زمن وجيز لغةً عالمية وسمت الحضارةَ الإنسانية بما احتضنته من العلوم والمعارف وما حملته من المعاني والقيم وبمن أُشربوا حبَّها من المفكرين والعلماء ونبغوا فيها من الأدباء والحكماء من العرب وغير العرب على حد سواء. ولم يقتصر حضورُ عربية القرآن على ذلك، وإنما شمل وجوهًا أخرى، إذ أسهمت في إغناء لغات المسلمين المختلفة من شواطئ الأطلسي غربًا إلى ضفاف الهادي شرقًا، فأفادتها غيرَ قليل من الألفاظ والمصطحات والعبارات صارت جزءًا أساسيًّا أصيلاً من الخطاب الديني والثقافي لتلك اللغات، بل تعدى تأثيرُ العربية الإقراضَ اللفظي إلى تشكيل البنية النحوية والخصائص التعبيرية والفنية لغير قليل من لغات المسلمين بصبغتها، كما هو الحال مع الفارسية مثلا. (ص٢٣٧-٢٤٨).

أما حضور القرآن لدى غير المسلمين فقد نظر إليه المؤلف من خلال الترجمة، فعقد الفصلَ الثاني من المحور الثالث لاستعراض تاريخ ترجمات القرآن إلى اللغة الإنجليزية سعيًا لتلمس الصورة التي رسمت للإسلام والمسلمين تبعًا لذلك، بينما خصص الفصل الذي يليه للبحث في أثر تلك الترجمات في العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب العقائد والأديان (interfaith relations). يمثل العام ١٦٤٩ الفاتحة لحركة ترجمة القرآن إلى اللسان الإنجليزي من قبل أبناء هذا اللسان ويقف بنا عبد الحليم عند العام ١٩٥٥ الذي صدرت فيه الترجمة التي أنجزها آرثر آربيري Arthur J. Arberry. كانت أول ترجمة إنجليزية للقرآن تلك التي قام بها ألكسندر روس Alexander Ross اعتمادًا على ترجمة فرنسية، وسبقتها ترجمة لاتينية أنجزها سنة ١١٤٣ إنجليزي آخر هو روبرت الكاتوني Robert of Ketton، ثم لحقتها ترجمة لاتينية أخرى قام بها لودوفيتشو ماراتشي Ludovico Marracci سنة ١٦٩٨. وقد كان لهاتين الترجمتين -خاصةً -وقعٌ كبير لم يقتصر على أثرهما في ترجمات القرآن الإنجليزية إذ كانتا مرجعًا أساسيًّا لكثير منها، بل أصاب وقعُهما الحياة الفكرية في أوروبا وأثارتا ردود فعل متباينة وحادة أحيانًا -وخاصة في إطار الكنيسة - بلغت حد المنع والمحاسبة القانونية، سعيًا في ذلك إلى حماية المسيحيين من خطر التعاليم المنحرفة للقرآن ورسول الإسلام. (ص٢٤٩-٢٥٢). وتحسبًا لذلك سوغ روس عمله بأنه إنما أقدم على ترجمة هرطقة محمد لكي يعرف المسيحيون «أعداءهم على حقيقتهم كاملة، ولكي يكونوا أحسن استعدادًا لمواجهتهم والتغلب عليهم». وقد شابَ ترجمةَ روس الكثير من الأخطاء لم تسلم منها حتى أكثرُ المقاطع القرآنية قصرًا. (ص٢٥٣).

وبعد أكثر من ثمانية عقود ظهرت عام **١٧٣٤** ثاني ترجمة إنجليزية للقرآن أنجزها جورج سايل George Sale الذي لم يكن من علماء الدين وكان ذا علم بالعربية، على العكس من سلفه روس في الأمرين معا. أما لم أقدم رجل قانون على ترجمة القرآن؟ فيورد المؤلف سببين: أهمهما وأولاهما بالاعتبار أن سايل كان يعد القرآن هو قانون النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، الأمر الذي عبر عنه في إهدائه الكتابَ حيث ذكر أنه «مهما كان ما يثيره اسم محمد من بغض، فإني أعترف بأني لا أستطيع أن أرى مانعًا من إيلائه (مثل غيره من الفاتحين) القدر نفسه من الاحترام، وإن كان في ذلك دون موسى والمسيح اللذين جاءا بشرائع إلهية حقا». بل يضيف سايل مسوغًا آخر لعمله، وهو أنه يقدم خدمة مهمة لمواطنيه البروتستانت الذين هم «وحدهم أقدر على دحض القرآن بنجاح»، الأمر لا يمكنهم بدون إتاحته لهم في لسانهم، ولا تفي به ترجمةُ روس لعدم معرفته للعربية. ومع ذلك، فإن ما أنجزه هذا الرجل - كما يرى المؤلف - لا يبدو فيه قصدٌ أو تعمد لتشويه نبي الإسلام ولا لتحريف القرآن، بل إن ترجمته تتسم بتحسن واضح مقارنة بالترجمات الأوروبية السابقة لها، وذلك على مستويين: أولهما أن سايل يبدو أكثر تحررًا من نزعة التحيز ضد الإسلام والقرآن التي طبعت أعمال سابقيه وكثير من لاحقيه. أما المستوى الثاني فهو معرفته للعربية وتوفره على مادة غزيرة من المصادر الإسلامية في التاريخ والسيرة وغيرهما بفضل حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية التي نهض بها عدد متزايد من المستعربين، وهو ما يبدو جليًّا في تمهيده المطول للترجمة وفي تعليقاته وإحالاته الغنية في حواشي النص المترجم. **(٢٥٧-٢٥٣)**.

وقد استمرت ترجمة سايل بدون منافس طوال مائة وعشرين وسبعة أعوام حتى ظهرت ترجمة جون رودويل John Medows Rodwell سنة **١٨٦١** مستعيدةً أصداءَ مواقف رجال الكنيسة من الإسلام في العصور الوسطى. فلم يكن غرض رودويل ومتابعيه منصبًّا على القرآن نفسه بالدرجة الأولى، بل على تطور التعاليم الدينية الإسلامية ومصادرها، وخاصة من ناحية علاقتها بكتب اليهود والنصارى، مع إقراره بأن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) كان صادقًا ومخلصًا في سعيه لهداية قومه، إلا أن تطور الأوضاع من حوله ونجاحه السريع في نشر دعوته حملاه - حسب المترجم الإنجليزي -على الاعتقاد في نفسه بأنه نبي مرسل! ويسرف صاحبنا في التشكيك في أصالة القرآن الذي يعتبره أدنى من كتب التوراة، غير متورع عن تحريف معاني الآيات عند ترجمتها أو التعليق عليها لتأييد آراء سابقة يتبناها، ولا يتوانى في القدح في نبوة محمد بتصويره انتهازيًّا يستخدم أية وسيلة لبلوغ أهدافه، كما لا يتردد في استنقاص شأن المسلمين إذ يسمهم بالدونية الفكرية! وما زال لهذه الترجمة حتى اليوم حضورٌ واسع وأثر كبير في أوساط المسيحيين الإنجيليين خاصة على نحو جعلها في منزلة المراجع الكنسية الرسمية. **(ص٢٥٧-٢٦١)**.

وقد تلت ذلك ترجمةُ إدوارد بالمر Edward Henry Palmer التي صدرت سنة **١٨٨٠**، فجاءت متميزة عما قبلها.

وأول ما يميزها صدورُها عن أول «مترجم إنجليزي مستعرب عاش بين العرب» ومارس لغتهم حديثًا وكتابة بها في ذلك قرض الشعر، فضلاً عن دراسة نحوها وأدبها وترجمة شيء من فريد أشعارها. وقد أهله ذلك لتكلفه سلطات الاستعمار البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ بمهمة التخذيل عن قواتها العسكرية بين عرب سيناء، فكان مصيره الموت هو ورفاقه. وثاني ما يميز ترجمة بالمر تجنبه القدح في نبي الإسلام والتشكيك في نبوته، مصرحًا بضرورة التصدي لتلك النظريات التي صورته مجرد متحمس محتال، بل إنه ليرى أن عده «مصلحًا سياسيًّا عظيمًا لا يعبر عن الحقيقة كلها»، رافضًا أن يكون راهبٌ نصراني هو من علم محمدًا (صلى الله عليه وسلم) ومؤكدًا أصالة ما جاء به من تعاليم. وقد لاقت هذه الترجمة رواجًا واسعًا جسدته طبعاتها العديدة من قبل ناشر عريق، وأسهمت إسهامًا كبيرًا في تغيير صورة القرآن في أذهان قراء الإنجليزية، ولم تزحزحها عن مكانتها إلا ترجمةُ آربيري الصادرة في عام ١٩٥٥. (٢٦١-٢٦٣).

ولنقْفزْ – وصلاً للكلام – إلى هذه الترجمة الأخيرة التي هي خاتمة القائمة فيما عرض له الأستاذ محمد عبد الحليم من ترجمات إنجليزية للقرآن. يتميز آربيري عن غيره من مترجمي القرآن بأنه كان عالمًا بالتراث القديم، متمكنًا في دراسة الفكر الإسلامي، متقنًا للغتين العربية والفارسية، مطلعًا على آدابها ومتذوقًا لفنونها، وخاصة القرآن. وبفضل ذلك احتل مكانة مرموقة بوصفه أستاذًا للعربية والفارسية والتراث القديم والفكر الإسلامي في عدة جامعات. ولقد كان آربيري يصدر في إسهاماته في الترجمة والتأليف وغيرهما عن رؤية مفادها أنه من مصلحة بريطانيا توطيد صلاتها بالعالم الإسلامي. أما عمله بشأن القرآن فيتسم بروح بينة من التواضع، إذ لم يعتبر ما قام به ترجمةً لنص القرآن وإنما تفسيرًا أو تأويلاً، فاختار عنوانًا معبرًا عن ذلك هو القرآن مفسَّرًا/مؤوَّلاً» (The Koran Interpreted). أقبل آربيري على القرآن متحررًا من كثير من القوالب الجاهزة والأحكام المسبقة التي اعتبرته أشتاتًا متراكمة ومقاطع متراكبة لا جامعٌ موضوعي يربطها ولا معيارٌ منطقي يحكمها، فاجتهد في تفهم خصائصه اللغوية والأسلوبية وطرائقه البلاغية التي اصطبغ بها خطابه وتلون بها أداؤه لرسالته، سعيًا إلى إبراز أن كل سورة من سوره «وحدةٌ فنية متكاملة، وأن ما يبدو فيها من أجزاء متنافرة يشكل نمطًا ثريًّا بديعا». ومن الغايات التي رامها آربيري من ترجمته التأويلية إبرازُ الخصائص البلاغية والإيقاعية للقرآن التي تمثل جانبًا مهمًّا من بهائه وسموه والتي قصُرت عنها الترجماتُ السابقة. ولذلك تكلف مراعاةَ الإيقاع والسجع في أواخر الآيات بقدر يتسع له اللسان الإنجليزي وتسمح به المعاني القرآنية. إلا أنه مما يعيب عملَ آربيري خلوُّ ترجمته عن أية تعليقات تعين القارئ على درك معاني الآيات، خاصة في تلك المواضع التي تتعدد فيها الدلالات سواء بسبب طبيعة الألفاظ وتنوع التراكيب أو لتعدد القراءات واختلافها. (ص٢٦٧-٢٧٠).

ولنلو العنان رجوعًا إلى ما قبل آربيري لنقف عند ترجمتين أخريين صدرتا خلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، أولاهما لمحمد مارمدوك بكتال Muhammad Marmaduke Pickthall التي صدرت طبعتها الأولى سنة **١٩٣٠** والأخرى لريتشارد بل Richard Bell الصادرة بين عامي **١٩٣٧** و**١٩٣٩**. ولنبدأ بالثانية لنثني بالأولى. تعتبر ترجمةُ بل في دوافعها وغايتها امتدادًا لنظرة الأوساط الكنسية إلى القرآن بإرجاع تعاليمه إلى أصول يهودية مسيحية، ولكنها زاد عليهم بعدم أخذه النص القرآني كما عهده المسلمون بين دفتي المصحف تركيبًا وترتيبًا، الأمر الذي حدا به إلى إعادة ترتيب سوره لتجاوز ما اعتبره فوضى وتشويشًا في بناء المصحف، وهو ما عبر عنه بعنوان كتابه إذ سماه:. ولذلك فإن ترجمته - كما قال آربيري - «غير قابلة للقراءة»، بل هي - كما ذكر المؤلف -«عمل تفكيكي» لا يفيد القارئ شيئًا في التعرف على القرآن. (ص**٢٦٥-٢٦٧**).

ولنعد الآن إلى ترجمة بكتال، وأول ما ميزها أنها أول ترجمة ينجزها شخص مسلم ذو أرومة إنجليزية تعلم العربية من أهلها، وعاش بين المسلمين واحتك بهم وتعرف على ثقافتهم معايشة وخبرة. وهذا يعني أن تعامله مع النص القرآني يتسم بالاحترام والتبجيل والبعد عن تعمد التحريف والتشويه. وفضلاً عن ذلك، استعان محمد مارمدوك بعالم مسلم ضليع في العلوم الشرعية والطبيعية -هو الدكتور محمد أحمد أحمد الغمراوي - تحت رعاية شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي. وبذلك توفر لبكتال من الشروط العلمية والثقافية ما لم يتوفر لكثيرين غيره من مترجمي القرآن، الأمر الذي جعل ترجمته تحظى بقبول واسع خاصة في أوساط المسلمين. وتساوقًا مع الرأي الفقهي القائل بعدم قبول النص القرآني للترجمة، اختار بكتال عنوانًا معبرًا عن ذلك: (معاني القرآن العظيم: The Meanings of the Glorious Koran). (ص**٢٦٣-٢٦٥**).

لقد اقتصرنا في مراجعة عرض محمد عبد الحليم للترجمات الإنجليزية للقرآن على رصد خصائصها الكبرى، دون الدخول في تفاصيل ما أثاره بشأنها من وجوه النقد وبينه من جوانب القصور خلال استعراضه تلك الترجمات أو في الخاتمة التي أودعها جملةً مفيدة من التعليقات والتوصيات. (**٢٧٠-٢٨١**) وإنما يهمنا من بعد ذلك ما حاول استشرافه من أثر لترجمة القرآن في العلاقات بين أصحاب العقائد والأديان المختلفة، و هذا الأمر محض له الفصل الأخير من المحور الثالث. فإذا كان القرآن يصرح بأنه من سنة الله أن يكون الناس مختلفين ومتنوعين في عقائدهم وأديانهم وأن لا سلطانَ على أحد في اتباع دين دون آخر إلا الاقتناع الذاتي والاختيار الحر، فإنه كذلك يعلن أنه لم يأت لاغيًا لما سبق نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإنما جاء مصدقًا لما في رسالات الأنبياء السابقين ومحييًّا له مما هو حقائق مطلقة دائمة خالدة، كما جاء مقومًا وناقدًا ومصححًا لما لحقه التحريف من تعاليم أولئك الأنبياء على أيدي أتباعهم، وناسخًا لما هو منها موقوت ببيئاتها زمانًا ومكانا. (ص**٢٨٣-٢٩١**) إلا أن سوء الترجمة

عمدًا أو خطأ وبحسن نية أو اتباعًا لسوء تأويل وتفسير لمعاني الآيات كثيرًا ما يكون سببًا في رسم صورة سلبية لرؤية القرآن لغير الإسلام من الأديان وموقفه من أتباعها، الأمر الذي يؤدي سوء التفاهم وتوتير العلاقات بينهم وبين المسلمين. وههنا يؤكد الأستاذ عبد الحليم ما قرره في أكثر من موضع من الكتاب من أن عدم العناية بلغة الخطاب القرآني وأساليبه البلاغية وعاداته التعبيرية وطرائقه في الحجاج والاستدلال يأتي في مقدمة سوء الفهم والتأويل لمعانيه وبالتالي سوء الترجمة والنقل لها، سواء كان ذلك على مستوى أمهات المفاهيم أو على مستوى جزئيات المسائل. (ص٢٩١-٢٩٨).

أسلوب القرآن: طرائق وخصائص

ما بين المحورين الأول والثالث، تصحيحًا لبعض المفاهيم ابتدءًا وترسمًا لحضور القرآن انتهاءً، أبحر بنا المؤلف في المحور المتوسط بينهما وخلال فصول ستة في جملة من القضايا والموضوعات ذات الصبغة المنهجية في المقام الأول توخى في بحثها الكشف عن خصائص أسلوبية وطرائق خِطابية وأفانين بلاغية وأنماط برهانية وعادات بيانية جرى عليها القرآن في تبليغ رسالته وتوصيل تعاليمه وتشريع أحكامه وبيان مقاصده. ومن ثم جاءت تلك الفصول متنوعة موزعة على ما يتصل بمنهج تشريع الأحكام الجزائية تعليلاً وتطبيقًا (ص٨٩-١٠٩)، وما يختص بأسلوب التعريض في تناول المسائل الجنسية (ص١١١-١١٧)، ويتناول أسلوب السرد في تكرار بعض القصص كما هو الشأن في قصة نوح عليه السلام (ص١١٩-١٤٠)، وما يتعلق باتساق السورة وكيفية قراءتها بوصفها وحدة عضوية متكاملة (ص١٤١-١٧٥)، ومنها ما يعالج أسلوب البرهنة والإثبات كما هو الأمر في أقسام القرآن (ص١٧٧-٢١١)، ومنها أخيرًا ما يدور حول الأسلوب البلاغي وما يميز عربية القرآن (ص٢١٣-٢٣٤).

وهذه الفصول بما عالجته من مسائل وتوقفت عنده من ظواهر تتعلق بمنهج القرآن وبنية خطابه تمثل – في رأينا – واسطة العقد في كتاب الأستاذ محمد عبد الحليم. وكأنما أراد أن يبين ويؤكد من خلالها أن إدراك الصواب في فهم مصطلحات القرآن ودرك معانيه وتجنب الخطإ والتحريف في تأويل خطابه وترجمة رسالته، ذلك كله إنما هو مشروط بالتعرف على تلك الخصائص والطرائق والأفانين والعادات التي تميز القرآن، وبمراعاتها واستصحابها والجري على مقتضاها في التعامل مع آياته وسوره والبحث في موضوعاته والوقوف على دلالاته. ولنقل بعبارة أخرى إن ما أودعه المؤلف في فصول المحور الثاني المتوسط هو بيان لمعالم المنهج الذي ينبغي توخيه في معالجة أمثال ما أثاره وناقشه من قضايا في المحورين الأول والثالث.